الباب الثانى
فى المُقسم عليه

الفصل الأول

أصول الإيمان

(١)

وحدانية الله

أقسم الله على وحدانيته قائلاً: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[١] فى مطلع سورة الصافات بعد قسمه بطوائف ملائكته الصافات والزاجرات والتاليات ما يوحى الله به إلى رسله: والسورة مكية، فالخطاب فى الآية موجَّه إلى قريش.

والله ﴿لَوَاحِدٌ﴾ فى ذاته وصفاته وأفعاله وعبادته. أما فى ذاته فلا إله سواه، وكانت قريش - ومثلها العرب - تعبد آلهة متعددة من الكواكب وغيرها. والقرآن الكريم يذكر مراراً وتكراراً أن الله - جلَّ شأنه - لا شريك له، وبذلك جاءت جميع الديانات الإلهية معلنة أنه إله واحد، وكل من عبد آلهة غيره أو أشركها فى عبادته يُعَد كافرا مشركا به، يستحق غضبه وعذابه دون أى

---

(١) سورة الصافات - الآية ٤.

عفو منه أو غفران كما قال تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1].

وأحديَّة الله في صفاته أو وحدانيته تنفرد بها ذاته، وما جاء في القرآن الكريم منها مثل: سميع، بصير لا يعني أن لله جوارح كجوارح الإنسان، إنما يعني أنها تنكشف له لا بجارحة مثل البشر، إذ هو فوق كل تكيُّف حسي. وأحديته أو وحدانيته في الأفعال أنه وحده خالق الكون وصانعه ومدبر قوانينه ومبدع كل شيء فيه دون أي شريك، إذ لو كان له شريك لفسد العالم. وأحديته أو وحدانيته في عبادته: لا يُعبد سواه، وكان العرب في الجاهلية وثنيين يعبدون آلهة متعددة، واستأصل الله هذه العبادة الوثنية من نفوسهم، وجعلهم موحدين يؤمنون بوحدانية الله إيماناً راسخاً في ضمائرهم وقلوبهم.

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[2] هو رب الكون المتصف في عوالمه السماوية والأرضية المربّي لكل ما فيه والراعي

﴿ وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ أي مشارق الشمس اليومية التي تمتد إلى أكثر من ثلاثمائة وستين مرة بعدد أيام السنة، واكتفى الله — جلّ شأنه — بذكر المشارق هنا عن ذكر المغارب لدلالتها عليها، وقد جمع

---

(١) سورة النساء — الآيتان ٤٨، ١١٦.

(٢) سورة الصافات — الآية ٥.

بينهما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[1] فهو القادر المسيطر على الكون وكل ما فيه بقدرته وحكمته.

(١) سورة المعارج – الآية ٤٠.

٢

الرسول ورسالته

أ ـ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سورة يس [٣ ، ٤].

بعد القسم بالقرآن الحكيم فى مطلع سورة يس خاطب الله رسوله محمدا بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. والله – جلَّ شأنه – يرد بذلك – وهو جواب القسم – على طغاة المشركين من قريش الذين يزعمون أن "محمدًا" ليس مرسلاً إليهم من قِبَل ربه قائلين له : ما أرسلك الله إلينا. والصيغة القرآنية شهادة إلهيه كبرى لمحمد بأن الله أرسله إلى الناس ليهديهم إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة بعبادة ربهم الواحد الأحد. ولم يقسم الله لأحد من رسله بمثل قسمه بالقرآن فى هذه السورة بأن الله أرسله إلى عباده هادياً لهم. ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

أى على طريق ومنهج قويم هو منهج الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وطريقه الموصل إلى الهدى والفوز برضاه وما يُنْعم به على عباده.

ب - ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ سورة ق ٢- ٤ .

بعد أن أقسم الله بالقرآن فى افتتاح سورة ق منوِّها بما له من مجد وشرف عظيم قال: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ ﴾ أى المشركون ﴿ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أى من جنسهم. وتبدأ الآية بحرف ﴿ بَلْ ﴾ ويستعمل فى الإضراب الإبطالى مثل جاء زيد بل عمرو لنفى المجئ عن زيد وإثباته لعمرو، وليس لها فى هذا الموضع شىء من هذا المعنى. ويمكن أن يقال إنها فيه لإضراب انتقالى من القسم بالقرآن المجيد إلى تكذيب إنذار الرسول لهم بالبعث والمعاد، مع أن كل شىء فى الكون يعود أمام أبصارهم؛ يعود النهار والليل، وتعود الشمس يوميا، ويعود القمر، ويعود الثمر إلى شجر الفاكهة سنويا إلى غير ذلك. ولم يكتفوا بإنكار البعث والمعاد، إذ زعموا أنه من الأمور العجيبة التى لايصدِّقها الإنسان شافعين ذلك بقولهم: أَبَعْد أن يفارق الإنسان الحياة ويصبح جسده وعظامه تراباً مثل التراب الملقى فيه، تردُّ إليه روحه ويعود إلى الحياة، ويقولون إن ذلك بعث بعيد وقوعه. وهم بذلك أنكروا أن يكون محمد - وهو مثلهم من البشر - رسولاً من لدن الله منذراً لهم

من البعث والمعاد.

والله يقسم بالقرآن المجيد فى هذه السورة - كما رأينا - بالرد على تعجب المشركين من إرساله إليهم رسولاً منهم، وهو يصطفى لرسالته من يراه أهلاً لها من البشر. وردٌ أيضا على تعجبهم من المعاد قائلاً فى آية تالية لما تلوناه ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أى من أجسادهم وعظامهم يسجّل ذلك.

وواضح من هذه الآيات التى تلت القسم فى سورة(ق) أنها تحمل الجواب على القسم بمضمونها، وهو إثبات النبوة للرسول وإثبات المعاد. وقال بعض المفسرين للآيات إن الجواب قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ وكأن الله يرد عليهم بإثبات المعاد وحده، والجواب - كما ذكرنا - بإثبات رسالة الرسول وإثبات المعاد المفهومين من مضمون الآيات. وقيل إن ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالى، ولا تصلح أن تكون بدلاً للجواب، وهو لذلك محذوف، وتقديره: أقسم بالقرآن المجيد إنك - يا محمد - رسول صادق منذر من عذاب الله ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ﴾ يخوّفهم من عذاب ربهم وعقابه.

جـ - ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ سورة النجم ٢ - ٤.

هذه السورة المسماة سورة النجم للقسم به فى أولها أول سورة

جهر الرسول بتلاوتها فى السنة الخامسة لمبعثه فى الحرم المكى. ويلى القسم جوابه، وهو: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أى ما عدل عن طريق الهدى الذى أرسله به الله، وفى الإشارة إليه بكلمة ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ تعريض بأن المشركين يتهمونه بما ليس فيه من افتراءات كاذبة.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أى ما عدل عن الحق إلى غيره، إذ يتمسك به دائما. والآية وسابقتها شهادة إلهية للرسول بأنه دائماً لا يميل عن الحق والهدى. والله نزّه الرسول عن أن يكون من أهل الغواية والضلال، فهو دائماً راشد مستقيم بأدق معنى للاستقامة والرشاد.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أى لا ينطق عن كهانة ولا عن شعر أو عما يسمونه سحراً إنما ينطق بما أمره ربه بتبليغه إلى الناس من تعاليم الإسلام العظيم ومن العظة والحكمة. والآية تعمم نفى الهوى عن كل ما ينطق به الرسول من القرآن ومن السنة النبوية ومن الحكم بين الناس فى قضاياهم. وكان يقول: "ما أقول قولاً إلا حقاً". ومن قوله: "إنى أوتيتُ القرآن ومثله معه" من السنة النبوية. وكثيراً ما كان يقول: "نفث جبريل فى روعى" مقدماً بذلك لبعض أحاديثه القدسية.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أى القرآن المفهوم م السياق ﴿إِلَّا وَحْىٌ﴾ ربّانى من الله بواسطة جبريل إلى رسوله محمد ﴿يُوحَىٰ﴾ تأكيد بأن

القرآن وحى حقيقى، وليس مجازاً.

وأخذ الله فى السورة يتحدث عن كيفية حمل جبريل للقرآن من العالم العلوى إلى الرسول، فقال إنه ألقاه عليه مَلَكٌ هو جبريل، ونعته بالقوة وأنه يستطيع تنفيذ ما أمره الله به من الوحى إلى الرسول، ثم قال إنه تهيأ لحمل الوحى من لدن الله قائماً وهو فى الملكوت الأعلى أو العالم العلوى ثم هبط إلى طبقات الأرض، ومضى فى العالم الأرضى ودنا من الرسول وقرب منه حتى أصبح على بعد قوسين (نحو ذراعين) منه فأوحى إليه ما كلفه الله بتبليغه من القرآن الكريم.

د - ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ سورة القلم ٢، ٣.

أقسم الله فى فاتحة سورة القلم بالقلم والكتابة تنويهاً بهما فى أول سورة نزلت على الرسول ﷺ، وإعلاماً بأن دينه سيقوم على القلم والكتابة وبعبارة أخرى على العلم واعتماده على أداته من القلم، ونوّه بجانب الكتابة والقلم فى القرآن بالعلم والعلماء، والإسلام - بذلك - دين علم وحضارة.

والله يقسم فى هذه السورة بالقلم والكتابة تعظيما لهما ولأثرهما الرائع فى الحضارة الإنسانية، وإيماء إلى ما سيكون لهما من أثر عظيم فى كتابة القرآن الخالد وبعثه العرب والمسلمين على إحداث

نهضة علمية، كان لها أكبر التأثير فى النهضة العلمية الغربية على نحو ما أوضحنا ذلك فى كتابنا «عالمية الإسلام».

وبهذا القسم العظيم بالقلم والكتابة يخاطب الله الرسول منكراً على مشركى قريش وصف بعضهم له بالجنون، وبلغ بهم الحمق أن كانوا يقولون ذلك فى وجهه أو فى مواجهة شديدة كما حكى الله ذلك فى آخر السورة قائلاً: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾[1] أى ويكاد الذين كفروا بحدَّة نظرهم إليك أن يصيبوك بأبصارهم: أبصار العداوة والحسد ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أى لما سمعوا إنذار الرسول لهم بالعذاب إن لم يدخلوا فى الإسلام ﴿وَيَقُولُونَ﴾ افتراء على الرسول ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

والله ينفى نفياً باتاً ما افترى به بعض المشركين على الرسول من أنه مجنون قائلاً له: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جواباً لقسمه العظيم، إذ برَّأه مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون حسداً وغيظاً وعداوة. وأكد الله نفى هذا الجنون عن الرسول بما أسبغ عليه من نعمة النبوة والإرسال إلى الناس كافة برسالة الإسلام العظيمة.

ولما دفع الله عن الرسول ما افتراه عليه بعض مشركى قريش من الجنون أسبغ عليه إكرامه على ما يشقى فى رسالته وسماعه مثل هذا الافتراء الكاذب قائلاً له: ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا محمد ﴿لَأَجْرًا﴾

---

(١) القلم — ٥١ —

أى ثواباً عظيماً ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أى غير منقوص ولا مقطوع أى أجرا سرمديًّا، وقيل هو شفاعته لأمته يوم القيامة، إذ يغفر الله للمسلمين جميعاً بها ذنوبهم، حتى لأهل الكبائر بلا حساب ولا عقاب.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] لا يبلغ شأوه أحد من الناس، مما يجعله يحتمل أذى الكفار وافتراءاتهم صابراً. والمراد الخلق الحميد الكامل، وسئلت السيدة عائشة عن خلق الرسول، فقالت: كان خُلُقه القرآن أى أنه يتَّصف بمحامد الأخلاق التى ذكرها الله فى القرآن، وذكر هو ذلك فى بعض أحاديثه، فقال: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وهى واضحة فى شريعة الإسلام، إذ تحمل المسلمين على التخلق بالأخلاق الحميدة الكريمة.

وبعد قليل من الآيات فى السورة ينعت الله من زعم أن الرسول مجنون بعشرة خصال ذميمة، منها أنه حلاَّف كذبا، طعَّان فى الناس، نمام، مناع للخير شديد العدوان، يقول عن الرسول إنه مجنون، ويقول عن القرآن إنه أساطير الأولين.

هـ ـ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦

---

(١) سورة القلم: الآية ٤.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ سورة الضحى ٣-٨

أقسم الله - جلَّ جلاله - فى افتتاح هذه السورة بالضحى إيماء إلى أن رسالة الرسول عليه السلام ستعم أضواؤها الأرض مثل الشمس، وكما أن الضحى يكون فى أوائل طلوعها كذلك رسالتك يا محمد لا تزال فى بواكيرها. ويقسم الله بالليل فى سكونه وهو الوقت الذى اختاره الرسول عليه السلام لصلاته ليلاً وتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم.

وكان الوحى انقطع عن الرسول عليه السلام فترتين: فترة أولى بعد نزول سورة المدثر، وقيل بل سورة المزمل، ويقال إنها امتدت إلى أربعين يوماً، وفترة ثانية بعد نزول ثمانى سور وكانت قصيرة. ونزلت السورة حين أرجف المشركون بأن الوحى انقطع عن الرسول عليه السلام تطميناً له، وأكبر الظن أنها نزلت بعد فترة الانقطاع الأولى.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ جواب القسم هى وما يتبعها من الآيات. ومعنى ما ودَّعك: ما تركك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أى وما قلاك وأبغضك فأنت لا تزال محبوبه ومصطفاه.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أى وللدار الآخرة خير لك عندنا من الدار الأولى دار الدنيا فى القرب منا والكرامة وفيما يغمرك من الخير.

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ اللام للابتداء لتأكيد مضمون الجملة وإعطاء الله لك إعطاءً مستمرًا ﴿ فَتَرْضَىٰ ﴾ والآية تشمل ما أعطاه الله للرسول فى إعلاء الدين، وهو وعد واسع الشمول لما أعطاه للرسول من النصر والظفر بأعدائه يوم بدر وفتح مكة ودخول الناس فى الإسلام أفواجاً، وما فتح العرب فى عصر الخلفاء الراشدين شرقاً وغرباً. وهذا للرسول وأمته فى الدين، وسيعطى فى يوم القيامة الشفاعة الكبرى لأمته فى بدء الحساب.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ فقد توفى أبوه عبد الله وأمه السيدة آمنة حاملة به، وتوفيت وهو فى السادسة من عمره، وكفله جده عبد المطلب حتى السنة الثامنة وكفله بعده عمه أبو طالب، وكان هذا فى صباه. ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾ فى سن الشباب، فهداك وجعلك لا تعبد الأصنام كما تعبدها قريش، ووجدك ولا مال لك فأغناك، ونعمه عليك كثيرة.

(٣)

الإيمـــان بالقرآن

أ - ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾
سورة الزخرف [٣، ٤].

أقسم الله فى أول سورة الزخرف بالكتاب المبين، ويريد به القرآن الذى أنزله على رسوله محمد، وسيذكر ذلك توًّا فى جواب القسم. وتسمية القرآن فيه باسم الكتاب إيماء إلى أن الله أنزله على رسوله ليكتب؛ فالأمة الإسلامية مأمورة بكتابته، وكان الرسول يتخذ كُتَّابا لكتابة آياته بمجرد نزولها عليه، ويُسمُّون كُتَّاب الوحى، وأمر أبو بكر بكتابة أول مصحف له، وأمر عثمان بعده بكتابة مصحفه الثانى، وأصبح مصحفه إماماً للمصاحف فى العالم الإسلامى، وأكبَّ المسلمون على كتابة مصاحفه وانتشرت انتشاراً واسعاً فى الأمة إلى اليوم.

ويقول الله فى جواب القسم بأنه كتاب مبين واضح المعانى تمام الوضوح: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ وسمَّاه الله باسم

القرآن، وأصل اللفظة مصدر مثل الغفران، وسمّى بها الله كتابه المنزّل على محمد، مشيراً بها إلى أنه مقروء. وبذلك يجمع صفتين: صفة الكتابة وما نشأ عنها من كتابته في مصاحف تُعدُّ اليوم بالملايين، وصفة القراءة التي تجعله يؤخذ عن حملته - منذ عهد الرسول - شِفاهًا، وأصبح له في كل بلدة إسلامية كبرى أئمة من القُرّاء يؤخذ عنهم. وبذلك تمت عن طريق المصاحف وانتقالها على ألسنة قرائه صيانته وحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] وهو ما يميزه عن سائر الكتب الإلهية.

وقال الله في الآية السالفة إنه جعله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إذ نزل بلغة العرب ليدركوه ويفهموه حق الفهم، وقد اختار الله لهم ألفاظه وعباراته وصيغه، بحيث أصبح بيانه أروع بيان بلغة العرب، بل أصبح بياناً معجزاً بفصاحته وبلاغته. ويقول الله في نهاية هذه الآية: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مشيراً بذلك إلى أنهم لا يعطون القرآن ما يستحقه من التدبر مما جعلهم يعرضون عنه ولا يعقلونه، ولو تدبروه لعقلوه واعتنقوا دينه.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ يقول المفسرون إن المراد بأم الكتاب اللوح المحفوظ في العالم العلوي. وربما كان أولى

---

(١) سورة الحجر - الآية: ٩.

من ذلك أن تكون كلمة ﴿ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ رمزاً لعلم الله. ويومىء الله بذلك إلى أنه ثابت هو وجميع آياته وأنه لا يقبل التغيير بحال، إذ هو كلام الله الثابت الراسخ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ﴿لَدَيْنَا﴾ أى عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أى لعظيم القدر بين الكتب السماوية ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى يحمل الحكمة والعظة البالغة.

ب ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ سورة الدخان [٣ ـ ٦].

أقسم الله فى أول هذه السورة بالكتاب المبين أى القرآن مثل سورة الزخرف وهو مبين أى واضح أو مبين لطريق الهدى من طرق الضلال. ويقول الله فى جواب القسم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أى بدأنا نزول القرآن على محمد ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وتنكير ليلة للتعظيم. وحكمة بدء نزول القرآن ليلا أنه زمن المناجاة ومهبط النفحات والتجلّيات، وهو لذلك أطيب من النهار، ووصف الليلة بالبركة، لأن نزول القرآن فيها استتبع حصول المنافع الدينية والدنيوية للناس أو لأن فيها كما سيأتى ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أو لنزول الملائكة فيها بأوامر الله إلى الدنيا، وسماها الله ليلة القدر أى ليلة الشرف العظيم، وأنزل فيها سورة القدر وقال إنها: ﴿ خَيْرٌ

مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[1]. وهى إحدى ليالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[2] والصحيح أنها إحدى الليالى العشر الأخيرة من رمضان لقول الرسول عليه السلام: "اطلبوا ليلة القدر فى العشر الأواخر".

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أى أن الله أنزل القرآن منذراً بالعقاب والعذاب للعصاة فى تلك الليلة المباركة التى ﴿يُفْرَقُ﴾ أى يُفْصَل ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أحكمه الله رحمة بالناس، وجعل الملائكة تنزل بالقرآن كما قال فى سورة القدر، ونزل به دائماً جبريل.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أعاد الله لفظة أمر تعظيماً له إذ هو من عند الله تشريفاً له بهذه العندية ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى أننا نرسل الرسل بالكتب الإلهية لأجل إسباغ رحمتنا عليهم مهداة إليهم من رب العالمين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لدعاء السائلين ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأمورهم وأحوالهم.

جـ ـ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة الواقعة [٧٧ — ٨٠].

---

(١) سورة القدر — الآيات ٣ — ٥.

(٢) البقرة — ١٨٥ —

هذه الآيات فى سورة الواقعة جواب لقسم الله بمواقع النجوم ومغاربها المسخرة له الدالة على عظيم قدرته بأن الكتاب المنزَّل على محمد ﴿لَقُرْءَانٌ﴾ أى آيات مقروءة متلوّة لعظة الناس وتدبرهم فى وحدانية الله، وهو ﴿كَرِيمٌ﴾: وصف من الله له يميزه من الكتب السماوية مثل التوراة والإنجيل، وهو كريم لاشتماله على أغراض الدين الإسلامى من المعاد وصلاح المعاش، أو كريم لصلاحيته لكل أمة، ولكل عصر، أو كريم لوضوح معانيه وبلاغته المعجزة، أو كريم لأنه يهدى إلى مكارم الأخلاق ورفيع الأفعال، أو بعبارة جامعة هو كريم لكل ذلك.

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ قال المفسرون إن هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ الذى لا يطلع عليه أحد سوى الملائكة. وأولى من ذلك أن يكون المراد بالكتاب المكنون علم الله وإبلاغه إلى جبريل لنزوله به على الرسول، وطبيعى أن يكون علم الله به مكنوناً ومحجوباً عن أبصار الناس لأنه كلام الله جَلَّ شأنه.

﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وصف ثالث للقرآن الكريم بأنه لا يمس المكتوب منه فى مصحف وغير مصحف إلا المطهَّرون، والمراد الملائكة كما جاء فى سورة عبس فى قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أى القرآن ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾[1] وهم الملائكة. ولهذه المكانة الرفيعة كان ينبغى ألاّ يمس المصحف إلا المتطهر. واختلف الفقهاء إزاء هذه الآية على تطهّر من يمسّ القرآن من المسلمين وأنه واجب عليه أو مندوب إليه. وهم أولاً أجمعوا على أن من يكتب آيات من القرآن مقتبساً لها أو محتجاً بها لا يطلب إليه أن يكون متطهراً. أما المصحف فرأى مالك والشافعى أن على المسك به وجوب التطهر، وقال أبو حنيفة وابن حنبل إن ذلك التطهر ليس واجباً بل مندوباً إليه. والتطهر أن يكون ممسك القرآن متوضئاً أو على وضوء. ولم يشترط أحد من أئمة الفقهاء الوضوء قبل قراءته.

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الذى يخاطب عباده بما تشهد بصحته عقولهم وهو رَبّ الناس جميعاً الذى ينبغى ألاّ يخلقهم عبثاً وأن ينزل الشرائع التى تسعدهم فى الدنيا والآخرة، حملها إليهم رسل مختلفون مثل محمد الذى يحمل إليهم القرآن الكريم.

د ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ سورة الحاقة [٤٠ — ٤٣].

والآيات جواب لقسم الله بالوجود جميعه على أن القرآن قول

---

(١) سورة عبس: الآيات ١٣ — ١٦.

الحق، قائلاً ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أى القرآن المفهوم من حديث الله قبله فى السورة عن البعث والنشور. ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وإضافة القول إلى الرسول لأنه مبلغه إلى الناس، ويمكن أن يضاف إلى جبريل باعتبار أنه حامله عن الله إلى الرسول. وهو كلام الله وقوله: ﴿ كَرِيمٍ ﴾ والرسول الكريم فى الآية هو محمد ﷺ، والمراد بوصف كريم أنه كريم على الله الذى بلغ كلامه إلى الناس ودعاهم إلى الإيمان به ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ إذ الشعر كلام موزون بتفاعيل، ومصاغ بشطور لها قافية متحدة فى أبيات القصيدة جميعها، مما يجعله مباينًا للقرآن مباينة تامة. والله -تقدس اسمه- يرد بذلك على أبى جهل وأمثاله ممن كانوا ينعتون القرآن بأنه قول شاعر، ويقول الله لهم: ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ والمراد بالقلة النفى أى أن القائلين بذلك لا يؤمنون أى إيمان، ويمكن أن يكون المراد بالقلة فى الآية أى أن من يؤمنون منكم قليلون، وكان المسلمون فى مكة قبل الهجرة لا يزالون فئة قليلة. ويقول الله: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما يزعم عقبة بن أبى معيط وأمثاله من المشركين، وكانت الكهانة فى الجاهلية شائعة فى الجزيرة العربية، إذ كانت هناك جماعة تزعم أن لها خدمًا من الشياطين تخبرهم بالأنباء الخفية وتعرفهم بالأسرار وبالغيب وما يحدث فى مستقبل الزمان، والقرآن ملىء بذم الشياطين، فكيف تلقى إليه بهذا القرآن الذى يذمها ويلعنها مرارًا. وكان ما يلقونه إلى الناس من الكلام أسجاعًا مبهمة ليؤوِّلوها كما

يريدون، ولم تكن تحمل شيئا من الدعوة إلى مكارم الأخلاق ولا شيئاً من توحيد الله والإيمان بملائكته ورسله، ولا أى تعاليم دينية قويمة. ويقول الله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى أنهم لا يتذكرون الكهانة وكلام الكهان الخالى من ذكر الله والقائم على التضليل والبهتان؛ مما جعل الرسول عليه السلام يقول: من أتى عَرَّافاً أو كاهنا فصدَّق بما قال فقد كفر بما أنزل الله على محمد.

ويختم الله وصفه للقرآن فى الآيات الكريمة بأنه: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ نَزَّله على لسان جبريل تبشيراً للسعداء المؤمنين به، وإنذارا للكفار الأشقياء الذين رفضوه وعادوه.

هـ - ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ سورة التكوير [١٩ - ٢١].

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أى القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ المراد برسول فى الآية جبريل عليه السلام ولا يجوز أن يراد به الرسول ﷺ لوصفه التالى بالقوة الشديدة وبما نُعت به من أوصاف أخرى تدل عليه، وكان فعلاً رسولاً يحمل إلى النبى عليه السلام عن ربه القرآن، ونعته بأنه كريم أى كريم على ربه عزيز عظيم عنده وعند الناس لأنه يجيئهم بأفضل العطايا الإلهية، وهى الهداية إلى ما يسعدهم. وأضيف فى الآيات إلى وصف جبريل أربعة أوصاف فى الآيتين التاليتين.

والوصف الأول من الأوصاف الأربعة في السورة أنه: ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ إذ يهبط من الملكوت الأعلى ويصعد إلى السماء في أسرع من الطرف، ويقتدر على الأعمال العظيمة التي لا يقتدر عليها أحد مثل حمله الوحي عن الله إلى أنبيائه. ويمكن أن يكون المراد بقوته قوة إقدامه على ما يريده الله بثبات وطمأنينة وقدرة هائلة. وقيل المراد بوصف الله له بالقوة أنها قوة في أداء طاعة الله.

﴿ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أي عند الله، وتعبير الله عن نفسه بذي العرش كناية عن قدرته الكبرى وسيطرته على الكون ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي أن له مكانة رفيعة عند الله والعِنْديَّه في الآية عندية إكرام له وإعزاز، ومما يدلّ على مرتبته الكريمة عند ربه أن جعله تالياً له في آية سورة التحريم التي يذكر فيها نصره للرسول عليه السلام قائلاً: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ التحريم – ٤ –.

﴿ مُّطَاعٍ ﴾ هذا هو الوصف الرابع لجبريل فهو مطاع تطيعه الملائكة فيما يأمرهم به في الملأ الأعلى. ﴿ ثَمَّ ﴾ ظرف بمعنى هناك أمر في الملكوت الأعلى وهو إما متعلق بوصفه السابق وإما متعلق بوصفه الخامس التالي ﴿ أَمِينٍ ﴾ أي يحفظ ما عهد له به ويحمله عن ربه إلى أنبيائه دون نقص منه أو زيادة فيه.

و - ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ سورة الطارق [١٣ - ١٤].

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ الضمير يعود إلى معلوم من السياق وهو القرآن الكريم، ويقسم الله تقدس اسمه بالسماء ذات الرجع أى المطر والأرض ذات الصدع أى الشق، وهو يقسم بالمطر الذى ينزل فى شقوق الأرض فيحييها بعد موتها، وينبت فيها حدائق ذات بهجة كما قال - عزَّ شأنه - ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً ﴾ من كل نوع رزقًا لعباده. ويثنى على القرآن قائلاً: إنه ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ حيث الحق والباطل ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ أى ليس فيه شىء من الهزل إذ هو جد خالص لا هزل فيه، وجدير أن يهتدى به الغواة الضالون.

الفصل الثانى

أحوال الناس والإنسان

أحوال الناس

أ - ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ سورة الذاريات - ٨.

يقسم الله فى سورة الذاريات بالسماء ذات الحبك أى الطرائق وجوابها: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أى يا أيها الناس إنكم تختلفون فى أقوالكم وآرائكم فى القرآن والرسول. والخطاب للمشركين، وهم يختلفون فى قولهم عن القرآن إنه سحر أو كهانة أو إنه شعر أو أساطير الأولين، وبالمثل يختلفون إزاء الرسول فمن قائل إنه ساحر، ومن قائل إنه شاعر، ومن قائل إنه كاهن، ومن قائل إنه يحكى أساطير الأولين، ومن قائل إنه مجنون، ومن قائل إنه مفتر كاذب.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات -٩] أى يُصرف عنه ﴿ مَنْ أُفِكَ ﴾ يُصرف عن الحق إلى الباطل. أى مَنْ طبيعته من

المشركين أن لا يذعن للحق ولا يستسلم له، بل يرفض ذلك رفضاً باتًا. ويقول الله فيه وفى أمثاله ممن لا يقولون رأياً عن علم ويقين إنهم ﴿ خَرَّٰصُونَ ﴾ مصروفون عن قول الحق، ويذمّهم قائلاً: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ ﴾ [الذاريات: ١٠-١١]. وأصل صيغة ﴿ قُتِلَ ﴾ دعاء بالهلاك، وتحولت من هذا المعنى إلى اللعن، فالقائلون من المشركين ما أسلفنا ملعونون. وإنهم لفى غمرة من الضلال تغشاهم وتغمرهم غمرًا كما يغمر ماء النهر من يستحمّ فيه. ﴿ سَاهُونَ ﴾ أى غافلون عن معرفة الحق غفلة شديدة.

ب - ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ سورة الانشقاق- ١٩-.

هذه الآية جواب لقسم الله فى السورة بقدرته العليا على إيجاد الشفق والميل وما يحمل من النجوم والقمر حين يكتمل نوره. وكلها آيات دالة على قدرته وربوبيته.

وقوله تعالى ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾. الخطاب فى الآية للناس أى حالاً من الشدة بعد حال، وعن الحسن البصرى: أى رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقر بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقمًا بعد صحة. ويقول بعض المفسرين أى لتركبن أمر العرب قبيلة بعد قبيلة فتكون الآية وعداً بنصر الرسول والمؤمنين على العرب. وقيل لتركبن منازل من كانوا قبلكم منزلاً بعد

منزل، كما قال الرسول عليه السلام: "لتركبن سنن من كانوا قبلكم" أى فى التكذيب للرسول وعصيانه.

وقيل الخطاب فى الآية للإنسان أى حالاً بعد حال من الرضاعة إلى الصبا ومن الصبا إلى الشباب، ومن الشباب إلى الشيخوخة. وقال الطبرى: الصواب من التأويل قول من قال إن الخطاب موجه للرسول عليه السلام. وقال ابن عباس: لتركبن طبقا عن طبق أى سماء بعد سماء، وهو ما حدث فى ليلة المعراج والطبق بذلك السماء، ومن ذلك قولهم السموات السبع الطباق. وقيل: بل المعنى مع أن المخاطب الرسول: لتصعدنَّ درجة بعد درجة ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة حتى تنتهى إلى محل القرب والزلفى من الله. وقيل بل المعنى والمخاطب الرسول: لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال التى تنقل فيها الرسول من الدعوة فى مكة والهجرة وانتصاراته المتعددة. والأولى أن يكون الخطاب موجهاً للناس عامة ليؤمنوا بالله مدبِّر الكون ومصرِّفه فى جميع أحواله.

جـ - ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الليل ٤ - ١١.

يقسم الله فى أول هذه السورة بالليل فى غشيانه الأرض

بظلامه، وبالنهار فى إرسال أضوائه على الأرض فى نظام كونى ثابت له، وبخلق الله الذكر والأنثى وبثّه بهما حياة الناس فى الأرض، مصوراً بذلك قدرته العليا فى تدبير الحياة الإنسانية.

ويجعل الله جواب القسم على ذلك قوله: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ والسعى العمل مع شىء من جهد الإنسان، ويقول إنه لشتى جمع شتيت أى أن مساعيكم وأعمالكم مختلفة، منها ما يتجه إلى النفع والخير، ومنها ما يتجه إلى الفساد والشر، ويقول الرسول عليه السلام: الناس غاديان: مبتاع نفسه لربه فمعتقها، وبائع نفسه للشيطان فموبقها أى مهلكها. وصوّر الله اختلاف السعى والساعين فى فريقين: فريق خيِّر وفريق شرير ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ حقوق ماله من الزكاة والصدقة ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ فلم يأت حراماً ولا ارتكب إثماً ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أى بكلمة التوحيد أو بكلمة الإيمان أوبكلمة الإسلام أو بما وعد الله به المؤمنين من ثواب الجنة ونعيمها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أى فسنهيّؤه ونوفّقه لليسرى، وهى العاقبة الحسنة، وقيل الشهادة بالتوحيد ورسالة الرسول أو عمل الخير. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ بماله وبرّه ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ عن عبادة ربه وطاعته وطاعة رسوله، أو استغنى بماله ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أى بالصفات السابقة أو بالمعاد والدار الآخرة﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أى للعسر

والشدة. وعبَّر الله مع العسرى بالتيسير مثل تعبيره مع اليسرى من باب المشاكلة، مثل تعبيره بالتبشير مع العذاب فى قوله عن الكافرين ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] مشاكلة لكلمة التبشير التى ذكرها للمؤمنين فى مثل قوله:

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾[2].

---

(١) آل عمران : ٢١.

(٢) التوبة : ٢١.

(٢)

الكفـــار

أ - ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ سورة ص ٢.

أقسم الله فى أول سورة ص بالقرآن ذى الذكر أى الشرف أو العظة بما فيه من الوعد والوعيد من قصص الأنبياء وأخبار الأمم الماضية. وتلا الله القسم بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من رؤساء أهل مكة ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ والعزة الأنفة والحمية والشعور بالكبرياء، وهى فى الآية مذمومة لأنها عن غرور وإعجاب بالنفس دون انصياع للحق، وهى لذلك عزة كاذبة جعلت هؤلاء الرؤساء المكيين يستشعرون الحمية الجاهلية متعاظمين عن الاعتراف للرسول بنبوته وصدق قرآنه وأنه من لدن الله ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى مخالفة للرسول وعداوة ومعارضة شديدة.

و ﴿بَلِ﴾ فى صدر الصيغة للإضراب الإبطالى الذى يفيد النفى وهو ما جعل كثيرين من المفسرين للذكر الحكيم يقولون إنها هى وصيغتها لا تصلحان أن تكون جواباً للقسم، وقالت كثرتهم إن جواب القسم محذوف تقديره إن القرآن لحق. وقيل الجواب الآية

الثالثة : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ وكم مثل ﴿بَلِ﴾ لا تصلح أن تكون صدرًا لجواب قسم. وقيل جواب القسم الآية الرابعة عشرة فى السورة: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ وقيل بل الآية الرابعة والخمسون: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ وقيل بل الآية الرابعة والستون: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾. والآراء الثلاثة بعيدة لابتعاد الجواب عن القسم ابتعاداً كثيراً.

وقالت طائفة إن صيغة ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ جواب القسم ولا ضير فى أن تتصدره ﴿ بَلِ ﴾ لأن المراد بها تأكيد الجواب، وكأن معناها فى الصيغة معنى إنَّ المؤكدة. وقيل إن هذا الاستعمال ليس له أصل فى العربية، ولا مانع أن يكون الله استعمله فى القرآن بسورة – ص – لأول مرة.

ب – ﴿ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾سورة البروج٤-٨.

ضرب الله – تقدَّس اسمه – سورة البروج مثلاً لمن يعذبون المسلمين من أهل مكة فى بدء الإسلام من مثل عمار بن ياسر وبلال بن رباح، إذ كانوا يلقونهم على حجارة بطحاء مكة فى شدة الحر وكانت أشبه بصفائح محمَّاة ويلقون بعضها على صدورهم لتعذيبهم

حتى يرفضوا الإسلام، وهم يتمسكون به أشد التمسك، فضرب الله لهم بالسورة مثلاً بقوم من اليمن فتنوا جماعة ممن آمنوا بالله وحرقوهم فى النار وعاقبهم الله عقاباً شديداً. ذكر الله ذلك لبلال وعمار كى يثبتا على إسلامهما ويعلما أن الله معهم.

والله يقسم فى أول السورة بالسماء ذات البروج التى يتخذ سمتها منازل للشمس والقمر آيتيه الكبيرتين، وبيوم القيامه أنه لابد منتقم ممن يؤذون المسلمين كما انتقم للمؤمنين السابقين ممن عذبوهم، ويقول الله فى جواب قسمه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ أى لعنوا، والأخدود حفرة طويلة يقال كان طوله أربعين ذراعاً وعرضه اثنتى عشرة.

وقصة هذا الأُخدود وأصحابه أن اليهود كثروا فى اليمن، وتهود ملك يمنى يسمى ذا نواس وتهوَّد معه بعض أصحابه، وكانت بلدة نَجْران بالقرب منه تعتنق المسيحية. ويبدو أنه عرض على أهلها أن يتركوا المسيحية ويتهودوا فأبوا إباء شديداً فأغرى بعضَ حاشيته وأنصاره أن يحفروا فى نجران هذا الأخدود، ويقول الله فى وصفه: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ فقد ملأوه ناراً وأمدوها بوقود. وكان يؤتى بالنجرانى المسيحى ويخيَّر بين أن يترك دينه أو يلقى فى النار، وآثرها كثير من النجرانيين، فأحرقوا دون أى شفقة أو رحمة ﴿إِذْ هُمْ﴾ أى المشرفون من أنصار الملك ﴿عَلَيْهَا﴾ أى على النار

﴿قُعُودٌ﴾ يراقبون عملهم الوحشى الفظيع ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أى حاضرون، لا تأخذهم بالمؤمنين أى رأفة. ويمكن أن يكون معنى شهود أن يشهد كل منهم عند الملك لصاحبه أنه لم يرتكب أى تقصير فى تعذيب النجرانيين. ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى ما أنكروا عليهم ﴿ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ الغالب لأعدائه القهار ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ أى المحمود بكثرة نعمه وآلائه.

وأخذت برأى الفرَّاء فى أن جواب القسم ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ وما اتصل بها. ورأى بعض المفسرين أن الجواب الآية الثانية عشرة: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى على من يفتنون المؤمنين. وأولى من ذلك أن يكون الجواب الآية العاشرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ من كفار مكة وأذاقوهم صنوف الأذى والعذاب ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾.

جـ - ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾، سورة الفجر ٦ - ١٤.

هذه الآيات لا تصلح أن تكون جواباً للقسم فى أول السورة، ولذلك فهى دليل للجواب وتمهيد له، وهو محذوف وتقديره ليُنزلنّ ربُّك يا محمد بقريش عذاباً مثل عذاب عاد وثمود وقوم فرعون المكذبين للرسل. وقيل بل الجواب فى نهاية الآيات المذكورة وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ أى لمكذبى الرسل ومكذبيك، وسينزل بهم عقاباً شديداً.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ قيل الاستفهام فى الآية إنكارى، والأولى أن يكون تقريرياً والرؤية إما علمية، لأن أخبار عاد وثمود معروفة لدى العرب. ويمكن أن تكون بصرية، إذا اتسع الخطاب واشتمل على أمة الرسول ومن شاهد منها آثار عاد وثمود والفراعنة.

﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ فإنه قضى على أهلها قضاء مبرماً، وكانت تسكن جنوبى الجزيرة بين حضرموت وعُمان. ﴿إِرَمَ﴾: قيل أجداد عاد الأولين أو هو اسم قديم لعاد الأولى قبل عاد الثانية: قبيلة هود التى كذبته وعاقبها الله عقاباً أليماً، وقيل بل إرم اسم أرض عاد. ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ وصف لعاد، والعماد العمود، فهى إما ذات أعمدة وخيام فتكون بدوية، وإما ذات أعمدة وأساطين كانت تقام عليها قصورهم. ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ قوة وصلابة.

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ﴾ أى نحتوا ﴿ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أصل

الوادى الموضع الذى يسيل فيه الماء والمراد به هنا المنْفَرج، وكانت بديار ثمود جبال يقطعون منها الصخر وينحتون منه بيوتاً كما قال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ الشعراء: ١٤٩.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ ظن بعض المفسرين أن المراد بالأوتاد فى الآية أوتاد الخيام، ولم يكن الفراعنة ولا كان المصريون فى عهدهم ذوى خيام إنما كانوا ذوى حضارة مشهورة، والمراد بالأوتاد الأهرامات التى اشتهرت بها مصر منذ أيام الفراعنة إلى اليوم ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ صيغة للأقوام الثلاثة: عاد وثمود والفراعنة فقد طغوا وعتوا فى بلادهم عن أمر ربهم ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ والظلم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى أنزل بهم دفعة واحدة ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أى عذاباً شديداً نزل بكل قوم منهم، وصوره الله فى سور كثيرة، وهو الريح العاصفة لعاد، والصيحة القاتلة لثمود، والغرق الذى لا يبقى ولا يذر لفرعون وجنوده.

(٣)

أحوال الإنسان

أ - ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ سورة الطارق -٤.

أقسم الله - تقدس اسمه - فى سورة الطارق بالنجم الثاقب المضيئ لظلمة الليل. وقال فى جوابه: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ ﴾ طيبة وغير طيبة ﴿ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أى رقيب يرقب أعمالها ويسجلها عليها.

وقيل: الحافظ فى الآية الله لقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾[١]. فواجب الإنسان أن يستشعر وجود الله معه فى كل مكان وكل لحظة فلا يرتكب أى شيء من المعاصى خشية منه. ويروى أن عبدالله بن عمر- رضى الله عنهما - مرَّ بغلام يرعى غنماً، فقال له بعْنى شاة، فقال له إنها ليست لى، فقال له ابن عمر: قل أكلها الذئب، فقال له الغلام: فأين الله إن لم أكن أراه فإنه يرانى. وأعجب ابن عمر بأمانته وخشيته من الله، فأعتقه من سيده، واشترى له الغنم ووهبه له وبقى ابن عمر مدة

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.

يقول فأين الله. وينبغى على الإنسان ألاّ يأتى شيئاً من المعاصى حياءً من الله حافظه ورقيبه وإجلالاً له وهيبة من عقوبته.

وقيل الحافظ فى الآية إنما هو المَلَكُ الذى يسجل على الإنسان أعماله أخذاً من قوله تعالى فى سورة الانفطار: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾من الملائكة ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾[1] فكل ملك لشخص يحفظ أعماله، ويحصى عليه ما كسبه وأتاه من أعمال حسنة وأعمال سيئة، ويثيبه الله أو يعاقبه حسب أعماله. والحفيظ من الناس من يحفظ دينه وجوارحه من متاع الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان وما يدعوه إليه من المآثم.

﴿ لَّمَّا ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ قرئت بتشديد الميم، بمعنى إلاّ ﴿ وَإِنَّ ﴾ قبلها بالسكون نافية أى وما كل نفس إلا عليها حافظ. وقرئت لما بتخفيف الميم دون تشديدها، وحينئذ تكون إن مخففة من إنَّ المؤكدة الثقيلة، واللام فى لما الداخلة على خبر إن الثقيلة فارقة بينها وبين إن النافية، وما زائدة أى إن كل نفس عليها حافظ رقيب.

والآية ترمز إلى البعث. إذ تشير إلى أن أعمال الإنسان الحسنة والسيئة تسجَّل عليه مما يستلزم المحاسبة عليها، فيثاب على الحسنة منها ويعاقب على السيئة. ويتضمن هذا الجواب –

---

(١) سورة الانفطار: الآيات ١٠ ١٢.

وما أفاده من البعث والحساب أو الجزاء – إنذارا للمشركين أن يكفّوا عن معاصيهم وأعمالهم السيئة، لأن الله سيحاسبهم عليها حساباً عسيرا.

ب – ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ سورة البلد – ٤ –.

أقسم الله فى افتتاح سورة البلد بمكة المقدسة وبآدَم أو إبراهيم وذريتهما أو بكل والد وولده تكريماً للناس جميعاً ثم قال جواباً للقسم: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ أى فى مشقة وشدة وتعب، ومن الكبد اشتقت المكابدة بمعنى مقاساة شدائد الحياة منذ الرضاعة فى الطفولة والتعلم فى الصبا والشباب، كما يقاسى فى الزواج وتربية الأولاد وكسب المعاش ومتاعب الشيخوخة والهرم، وحتى ما يسمى لذة ومتعة إنما هما فى أكثر صورهما خلاص من ألم، فالطعام خلاص من ألم الجوع، ومَلبَسُ الإنسان خلاص من ألم الحر أو ألم البرد. وحياة الإنسان فى أكثر صورها إما ألم أو خلاص من ألم. ويمكن أن تكون مكابدة الإنسان شاملة – مع خلقه فى الدنيا – خلقَه فى الآخرة وما سيعانيه من شدائد البعث والموقف للحساب وعرض أعماله إلى أن يصل إلى استقراره إما فى الجنة مع المتقين، وإما فى النار مع العاصين.

والمراد بالإنسان فى الآية السابقة الجنس، وبذلك أخذنا فى التعليق عليها، وهو رأى أكثر المُفسرين، وذهب نفر منهم إلى أن

المراد بالإنسان المشرك بدلالة الآيات التالية، وكأنه لا يزال فى مشقة وتعب من التفكير فى عقيدته الوثنية المتعددة الآلهة والعقيدة الإسلامية التى تجعل الآلهة المتعددة إلهاً واحداً. وصفاته التالية فى السورة ترجح هذا الرأى إذ يقول الله عنه: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يوم القيامة، فإن الله سيبعثه خلقاً آخر للحساب والجزاء يقول: ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أى كثيراً فى الدنيا ولم أنتفع به فى الآخرة. وتقول السيدة عائشة عن عبد الله بن جُدْعان - وكان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين - إننى سألت رسول الله هل ذلك نافعه فى الآخرة، فقال لها لن ينفعه لأنه لم يقل يوماً: "ربِّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين".

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ والله قد رآه وهو ينفق أمواله للمباهاة، ويمضى الله فى توبيخ هذا الإنسان المشرك، قائلاً: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ رمزاً لما خلق له من مشاعر الإدراك ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾: وهما آلات الإبانة عما فى نفسه بالكلام ونطقه. والعينان واللسان والشفتان أدوات العلوم والحضارة للإنسان، والله يمتنّ بها جميعاً على الإنسان المشرك وأن واجبه أن يوحد الله ويعبده حق عبادته. ويضيف الله: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[1] أى طريقى الخير والشر بما منحناه من عقل يستطيع أن يميز طريق الخير والهدى من

---

(١) سورة البلد: الآية ١٠ وما قبلها.

طريق الشر والضلال، فيتبع طريق الخير. ويدعوه الله إلى اتباع طريق الرشاد، فلا يهلك ماله الذى يباهى به فى المفاسد من شرب الخمر واللهو، بل ينفقه فيما ينفع المجتمع قائلاً: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ أى دخلها بمشقة عسيرة، وبيَّنها الله فقال: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أى تحرير عبد مؤمن ورد هويته إليه. ودعوة الإسلام إلى تحرير العبيد والأرقاء والإماء كانت جزءًا لا يتجزأ من تعاليم الإسلام، وجعلها الله كفارة عن الذنوب الكبيرة والصغيرة مثل الحنث فى اليمين.

وأضاف الله إلى العقبة بجانب تحرير العبيد - إطعام القادرين فى يوم مسغبة وجوع للمحتاجين من اليتامى والمساكين قائلاً: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ أى من الأقرباء ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى ذا فقر شديد. ولابد أن يضيف إلى ذلك اعتناق الإسلام دين الله ويتواصى بالصبر الجميل والمرحمة كما يقول الله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالدين الحنيف ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ على اليتامى والمساكين، ويقول الله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ الذين وعدهم الله فى القرآن الكريم مراراً بأنهم من أهل الجنة، ويتوعد الكافرين العاصين بأنهم من أهل النار قائلاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ أى الشؤم والشر ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى

مغلقة عليهم أبوابها لا يخرجون منها أبدا. وآيات السورة جميعها موجهة إلى الإنسان المشرك المخلوق فى كبد.

جـ- ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ سورة الشمس ٧ - ١٠.

أقسم الله فى فاتحة سورة الشمس بالشمس وضوئها الذى تنشره على وجه الأرض وبالقمر تابعها الذى يضيئ الأرض ليلاً وبالنهار الذى يجلّى ضياءها وبالليل الذى يغمره وبالسماء التى رفعها فوق الأرض التى بسطها للناس كى يعيشوا عليها. وأقسم أيضاً بالنفس وما سواها أى التى أكمل خلقه لها وأبدعها، والنفس فى القرآن الكريم تدل على النفس الإنسانية وعلى ذات الإنسان، والنفس التى أقسم الله بها فى الآية قيل هى نفس آدم عليه السلام، والملائم لجواب القسم أن تكون نفس الإنسان عامة شاملة لنفوس الناس جميعاً. وقال بعض الأسلاف النفس إما مطمئنة وهى المتوجهة إلى الله توجهاً كاملاً، وإما أمّارة وهى المتوجهة إلى الطبيعة البشرية توجهاً كاملاً، وإما لوّامة وهى التى تتوجه تارة إلى الله وتارة إلى الطبيعة البشرية.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أى بيّنهما لها وعرّفها بهما وما يؤدّى إليه كل منهما، فعرّفها بهما تعريفاً كاملاً ومكّنها تمكيناً تاماً من اختيار الفجور أو التقوى من أيهما شاءت. وقيل هل يلهم

الله النفس الفجور؟ والجواب أن المراد بالإلهام فى الآية البيان والتعريف والإفهام، فألهمها الفجور لتعلمه ولا تعمل به، وألهمها التقوى لتعلمها وتعمل بها. فالإلهام أو الإفهام مع الفجور إفهام إعلام، ومع التقوى إفهام أو إلهام عمل لتعمل به. فهذه الآية مثل قوله تعالى فى سورة البلد ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ﴾ أى الإنسان ﴿ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ عن طريق الخير والشر، ومعنى هديناه هناك مثل معنى ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ هنا، أى النفس ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ فمعناهما جميعاً بيَّنا، حتى يتبع طريق الخير فى سورة البلد، وحتى يختار التقوى ويعمل بها فى هذه السورة.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ هاتان الصيغتان جواب القسم. ﴿ أَفْلَحَ ﴾ فى الآخرة و ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ إما من الزكاة بمعنى النموّ، ومنه زكى الزرع إذا نمى نموا كبيرا، ومنه إطلاق الزكاة على ما يخرجه المسلم من حق الله فى ماله إلى الفقراء، إذ لا يعد ذلك نقصاً لماله إنما يُعَدُّ إنماء له وبركة، فمعنى تزكية النفس فى الآية إعلاؤها بالتقوى ورفع شأنها والانتظام فى أهل الصلاح وعمل البرّ والخيرات. وإما ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ من التزكية بمعنى التطهير أى قد أفلح من طهَّر نفسه من الرذائل والمخالفات الآثمة. وتنسب التزكية إلى الإنسان كما فى هذه الآية، وقد تنسب إلى الله كما فى قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾[1] وقد تنسب إلى

(١) سورة النساء: الآية ٤٩.

الأشياء والأعمال الطبيعية التى تزكى الناس كما فى قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾[1].

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أى خسر وحُرم من دسّاها أى أغواها، وقيل دسّاها أى أخفاها بإهمال فعل البرّ وارتكاب المعاصى، وقيل دساها أى دسّ نفسه فى الصالحين، وليس منهم. وقيل إن الضمير فى: ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ و ﴿ دَسَّىٰهَا ﴾ يعود على الله أى قد أفلحت نفسٌ زكاها الله بالطاعة وطهرها وأعلاها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها. وعود الضمير على ﴿ مَن ﴾ أى الإنسان أولى وأرجح. وفى الحديث أن الرسول ﷺ كان إذا قرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ وقف داعياً ربه بقوله: "اللهم آت نفسى تقواها، أنت وليُّها ومولاها، وزكّها أنت خير من زكّاها".

د- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾ سورة التين ٤ - ٦.

هذه الآيات جواب القسم فى سورة التين، إذ افتتحها الله بالتين والزيتون رمزاً إلى بيت المقدس منشأ رسوله عيسى عليه السلام، وتلاه بطور أو جبل الطور فى سيناء الذى

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

كلم عليه موسى عليه السلام، وذكر بعده البلد الأمين مكة التى نشأ فيها محمد وبذلك جمع الله فى القسم الأماكن التى ترمز إلى رسله الثلاثة العظام: موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، إكراماً لم جميعاً ولما أدوا إلى الناس من الديانات الإلهية الثلاث.

ويقول الله فى جواب هذا القسم العظيم: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ . والإنسان إما أن يراد به جنس الإنسان بجميع أفراده، وإما أن يراد به حقيقة الإنسان كقولهم الرجل خير من المرأة. وقول الله إنه خلق الناس فى أحسن تقويم قد يظن أن مرادالله أنه خلقهم منتصبى القامة بأعضاء متناسبة مع حسن الشكل كما قال-تقدس اسمه-﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾(غافر: ٦٤)، ولكن حسن تركيبه الجسدى وإبداع خلقه المادى لا يراد فى الآية وحده، لأنه لا يتفق مع ما جاء بعد هذه الآية من مصير شطر كبير من الناس وهم المشركون إلى النار. ولذلك كان حسن التقويم يشمل مع التقويم الجسدى الخِلْقى التقويم المعنوى، وهو حسن نظر الإنسان وفكره العقلى الذى أداه ويؤديه إلى الاتصاف بالصفات الإلهية من العلم والقدرة والإرادة، وهى الصورة التى أشار إليها الرسول عليه السلام فى قوله: "خلق الله آدم على صورته" وهو تفسير قوله: "مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه". ونوَّه الله فى القسم بأنه أرسل للإنسان -كى ينقذه من الضلال- رسله العظام: موسى

وعيسى ومحمد بتعاليمه الإلهية كى يخرجوه من الضلال إلى الهدى ومن الظلام إلى النور غير أن شطراً كبيراً من الناس الذين أنعم الله عليهم بالعقل ردّوا تعاليم الرسل الثلاثة، ولم يعملوا بموجب عقولهم، فتحولوا من ﴿ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ فكرى إلى أسوء تقويم باختيارهم الضلال على الهدى والكفر بدينهم على الإيمان. ويقول الله فى هذا الإنسان الكافر الضال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ و ﴿ رَدَدْنَـٰهُ ﴾ فى الآية مجاز عقلى عن ضلاله، فضلاً له هو الذى أداه إلى ما صار إليه من العقاب الأليم. وأصل معنى السفالة الانخفاض فى المكان، ويراد بها فى الآية الانحطاط فى الاعتقاد، والسافلون فى الآية هم المنحطون فى عقيدتهم الضالون. و ﴿ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ إما صفة لهذا الإنسان تؤديه إلى عذاب الجحيم، وإما صفة لكلمة مكان المحذوفة أى رددناه إلى مكان هو أسفل أمكنة السافلين فى النار.

وقيل: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾: أى رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم والشيخوخة بعد الشباب والكهولة كقوله تعالى:

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾[1] أى فيتقوس ظهره بعد اعتداله، ويبيض شعره بعد سواده ويكلّ سمعه وبصره، ويتغير منه كل شىء. وردَّ ابن قيِّم الجوزية هذا التفسير فى كتابه التبيان فى

---

(١) سورة يس: الآية ٦٨.

أقسام القرآن مستدلاً بعشرة وجوه، من أهمها أن أرذل العمر لا يسمَّى أسفل سافلين لا فى اللغة ولا فى العرف وأن ذلك يجعل الآية عامة للكفار والمؤمنين، بينما هى خاصة بالكفار لمقابلتها آية المؤمنين التالية لها، ولا يصلح أرذل العمر ليكون مقابلاً لجزاء المؤمنين وتخلو الآية من جزاء الكفار مع أنها نازلة فيهم. ولذلك كله يصبح التفسير الأول هو الصحيح.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ استثناء من عموم الإنسان للمؤمنين إيمانا صادقا الذين يعملون الصالحات المفروضة والمندوبة فإنهم ليسوا بأسفل سافلين لإيمانهم بربهم وتوحيده ولما عملوا من الصالحات.

وبيَّن الله جزاءهم العظيم، فقال: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ ﴾ جزاء لإيمانهم وعملهم ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى غير مقطوع ولا منقوص. وقال بعض المفسرين ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى لا يمنُّ الله به على المؤمنين إذ تمام النعمة أن لا يمن بها المنعم على المنعم عليه. وهذا خطأ لقياس نعمة الله على نعمة الإنسان التى تكدرها المنَّة، أما نعمة الله فإنها منَّة حقيقية لله على عباده، وهى مضافة إلى الله – تقدس اسمه – فى القرآن مراراً مثل: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ سورة آل عمران: الآية ١٦٤. وهو المنَّان العظيم. اللهم مُنَّ علىَّ بفضلك ورضاك..

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أى الجزاء يوم القيامة: جزاء الكافر بعذاب النار وجزاء المؤمن بدخوله الجنة وهو خطاب للإنسان، أى فما يجعلك مكذبا للجزاء والبعث، ولو فكرت فى مبدأ خلقك فى أحسن تقويم خِلقى ومعنوى لعلمت أن من خلقك وأتاح لك القدرة والإرادة قادر على أن يعيدك بعد خلقك، ولم يخلقك عبثاً، وإنما خلقك وسيحاسبك على ما قدمت لنفسك من عمل صالح وغير صالح.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لفظ أحكم إما من الحكم بمعنى القضاء، فهو أقضى القضاة وأعدلهم، وسيعرض على الناس يوم القيامة أعمالهم ويحكم عليها حكماً عادلاً منصفاً فى ثوابه من دخول الجنة وعقابه الأليم فى عذاب الجحيم. وممكن أن يكون: ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ من الحكمة أى التدبير المحكم فى خلق الإنسان فى أحسن تقويم.

هـ - ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

سورة العاديات ٦ - ١١.

هذه الآيات جواب لقسم الغزو بالخيل قبله. ويقال إن سبب هذا القسم الإلهى أن الرسول كان قد بعث بسريَّة عليها المنذر بن عمرو

الأنصارى إلى عشيرة من بنى كنانة، وأبطأت السرية أو الكتيبة إذ مرَّ عليها شهر ولم تعد إلى المدينة، فقال المنافقون إنهم قُتلوا، ونزلت السورة تبشر الرسول بسلامتهم وأنهم أغاروا على العشيرة الكنانية غارة ناجحة. وقيل إن الخيل فى السورة خيل الغزاة فى سبيل الله عامة. وإذا كانت خيل الغزاة فى سبيل الله لها هذا الشرف الرفيع من إقسام الله بها، فما بالنا بشرف الغزاة عليها وثوابهم العظيم.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ المراد بالإنسان فى الآية جنسه جميعه. و ﴿لَكَنُودٌ﴾ شديد الكفران لنعمة ربه. وقيل التعريف للإنسان للعهد أى أن المراد بالآية شخص معين من كفار قريش هو الوليد بن المغيرة فالتعريف فى لفظ إنسان للعهد لا للجنس، وأولى أن تكون لاستغراق الجنس، وأن من صفته التى تميز الكافر جحود نعم ربه عليه بدلاً من أن يبادر إلى شكره. وينسب إلى الرسول عليه السلام أنه قال: الكنود هو من يأكل وحده، ويَمْنَعُ رِفْده ويضرب عبده، وهى صور من جحود الإنسان لنعم ربه إذ يأكل وحده ولا يطعم فقيراً ولا مسكيناً شكراً لربه على ما أنعم عليه من المال الذى يتيح له الطعام، فهو بخيل بخلاً شديداً، ومن بخله أنه يمنع رفده أى عطاءه لمستحقيه من المساكين والفقراء، ويضرب عبده ويجيعه، كل ذلك لبخله، فلا ينتفع بماله أحد.

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قيل إن الضمير فى ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعود

على الله أى إنه عالم بكنود الإنسان مطّلع على كفرانه بنعمه، واحتج صاحب هذا القول بأن الله قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ مثل قوله فى سورة يونس: ٤٦ ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ ولو أنه أعاد الضمير فى الآية على الإنسان لذكر بدلاً من ﴿ عَلَىٰ ﴾ الباء الجارة، فقال ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أى الإنسان بذلك لشهيد، وسياق الضمائر فى الآيات العائدة إلى الإنسان يجعل من الأولى أن يكون الضمير فى الآية عائدا إلى الإنسان، وأنه يشهد على نفسه بالكنود لربه وجحود نعمه.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ المراد بالخير المال جرياً على عادة العرب فى تلك التسمية، وكما فى قوله تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ (البقرة ١٨٠) أى مالاً ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أى إنه لبخيل شديد الحب للمال شديد الإمساك به، فهو كفور بنعمة ربه لا يشكره عليها، وهو بخيل بما آتاه من المال فلا يعطى منه شيئا للفقراء والمساكين.

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ ﴾أى بُعث ﴿ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾و﴿ وَحُصِّلَ مَا ﴾ أى جمع له ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ من كفرانه لنعمة ربه وشُحِّه الشديد بماله وكفره ومعاصيه﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ وهى خبرة يترتب عليها الجزاء العادل الذى يستحقه الإنسان. والسورة – مثل سورة التين – جميعها قسم وجوابه.

و – ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ سورة العصر.

أقسم الله فى افتتاح هذه السورة بالعصر أى الدهر رمزاً إلى أنه – وحده– المؤثر فى الوجود والزمان. وتلا ذلك بالجواب فى الآيتين المذكورتين واستهله بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أى إن جنسه ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ أى خسران، وقد استعاره الله لسوء عاقبته فى آخرته. ولم يستعمل الله الخُسْر فى الجانب المادى المتصل بالتجارات، إذ يستعمل فيه الخسران، أما الخسر فيستعمله فى الجانب المعنوى المتصل بالضلال والآثام، وهو يتفاوت، فأعظمه إنكار الإيمان بوحدانية الله وبرسوله، ثم يكون بعد ذلك على مراتب حسب ارتكاب الإنسان للآثام والكبائر. والخاسرون خسراناً مطلقاً هم المشركون. وسيستثنى الله ممن يلحقُهم بالخسران المؤمنين وبذلك يجعل الناس فريقين: فريقاً يلحقه الخسران فى الآخرة وهم الضالون عن هدى الإسلام، وفريقا رابحًا حسن عاقبته فى الدار الآخرة. وهم المؤمنون بما ذكر لهم من صفات، إذ استثناهم قائلاً:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أى اتبعوا شريعة الإسلام وتعاليمها من الإيمان بوحدانية الله وبرسله وملائكته وكتبه وبالمعاد ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أى الأعمال الصالحة المأمورين بها فيما يتصل بعباداتهم وطهارة نفوسهم وتمسكهم بالفضائل وبرّ المجتمع وفقرائه

﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ أى أن كلا منهم يوصى أخاه المسلم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذى وصت به الشريعة الإسلامية: من حق فى العقيدة والإيمان بالغيبيات، ومن حق فى العبادات والسلوك، ومن حق فى مصالح الأسرة والمجتمع بحيث يعيش المسلم بالحق وللحق.

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ وهو حبس اللسان عن الشكوى والنفس عن الجزع، وهو أنواع: صبر على أداء الطاعات والواجبات، وصبر عن النواهى وارتكاب المعاصى، وصبر عند نزول البلاء مع الرضا بالقضاء، وصبر فى جهاد الأعداء، وهو فرض كفاية إلا إذا نزل الأعداء فى الوطن فإنه يصبح فرض عين على جميع أفراده.

الفصل الثالث

المعاد

(١)

البعث

أ – ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾ سورة القيامة ٣ – ٤. ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ الذى ينكر البعث ﴿ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ البالية فإن ذلك حسبانٌ باطل، وكافة الكفار ينكرون البعث، وحكى الله فى القرآن بعض أقوالهم من مثل ﴿ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾(يس: ٧٨) ومثل: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾(الإسراء: ٤٩)أى فُتاة من العظام ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾. والمراد بالعظام فى الآية الجسد جميعه، وعبر بها عنه لحكاية أقوالهم. والمراد بالإنسان جنسه جميعه.

﴿ بَلَىٰ ﴾ إبطال للمنفىً بعد الاستفهام الإنكارى فى الآية السابقة: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ أى بلى نجمعها ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ والبنان أصابع

اليدين والرجلين أو أطرافهما، وهو اسم جمع مفرده بنانة - والتسوية فى الآية إحكام خلق البنان، كما قال - تقدس اسمه - فى سورة الشمس ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أى أبدع خلقها. والله بذلك يثبت البعث وأنه قادر على إعادة الناس وإحيائهم خلقاً جديداً ليشملهم بجزائه، فللمؤمنين نعيم الجنة، وللكافرين عذاب الجحيم.

ونقل ابن قيم الجوزية فى كتابه "التبيان فى أقسام القرآن" رأياً فى التسوية لبعض المفسرين قالوا إن معنى الآية: بلى إننا قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئاً واحداً كخفّ البعير تماما بحيث لا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمله بأصابعه الحالية ذات الأنامل من فنون الأعمال ومن القبض والبسط والتأتى لما يريد من الحوائج. والمعنى على هذا القول: إنا قادرون فى الدنيا على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق.

وهو تفسير بعيد عن سياق الآيات، إذ المراد بها إثبات البعث لا فى الدنيا ولكن فى الحياة الآخرة، فالله لم يسق الآية لجمع الأصابع وإنما ساقها لخلقها خلقا تامّاً فى الآخرة كما كانت فى الدنيا، وهى من دلائل قدرة الله العظيمة فى خلقه للإنسان، إذ يستطيع بأصابعه أن يقدر على الإمساك بالأشياء وأن يحرك إصبعًا أو إصبعين والأصابع الأخرى معطلة. وهى من أعظم الأدلة على قدرة الله - سبحانه - على جمع عظام الإنسان بعد موته.

ويلاحظ ابن قيم الجوزية فى حديثه عن القسم فى هذه السورة أن من أسرارها أنها تضمنت التأنى والتثبت فى تلقى العلم، إذ أمِرَ الرسول فى السورة ألاَّ يتعجل فى أخذالقرآن عن جبريل قائلاً له: ﴿ تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾ مادام جبريل يلقيه عليك ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ مخافة أن يضيع منه شىء ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ فى صدرك ﴿ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أى إثبات قراءته فى لسانك بحيث تقرؤه متى شئت ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ بلسان جبريل ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أى اعمل به ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أى بيان ما أشكل عليك من معانيه.

ومن أسرار السورة التى ذكرها ابن قيم الجوزية أن الله جمع فيها لعباده الصالحين فى يوم القيامة بين جمال الوجوه، فقال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ أى غضّة مملوءة بشرا وسرورا، وبين الجمال المعنوى إذ قال إن هذه الوجوه حينئذ ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ متمتعة بهذا النظر متاعاً لا يماثله متاع ولما كان قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[1] قد يفيد التجسيم على الله، فإن أهل السنة يقولون إننا ننزه الله عن التجسيم ونؤمن بظاهر الآية كما أنزلت، ونفوِّض كيفية ذلك إلى الله، بينما يرى المعتزلة أن تُؤول الآية وأن معنى النظر إلى الله فيها توقع الكرامة منه.

ب - ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨

(١) سورة القيامة: الآية ٢٣ وما قبلها.

وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾
لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة المرسلات ٧ – ١٥.

أقسم الله فى افتتاح هذه السورة بصفات الملائكة فى إبلاغ شرائعه سريعاً للرسل ونشرها فى الأرض فارقة بها بين الهدى والضلال. وهى تدل – بوضوح – على مدى علم الله وقدرته. وقال فى جوابها موجها الخطاب إلى المشركين.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ والله يقول للمشركين إن البعث الذى توعدون به واقع لا محالة. وفرَّع على ذلك وصف فناء العالم قائلاً: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ وطمسُ النجوم زوال نورها مما يرافقه طمس نور الشمس إيذانا بفناء العالم.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ المراد بالسماء عمومها أى السموات السبع التى يعبر عنها علماء الفلك بالكواكب السيارة، وفرجت أى شُقّقت إذ تقع فيها فُرَج وشقوق.

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ واستحالت أجزاء متفرقة من الصخور والتراب كما قال الله – تقدس اسمه – ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾[1]. والله يصور بذلك كله اختلاف نظام العالم مع البعث،

(١) سورة المزمل: الآية ١٤.

مما يفضى إلى فناء الدنيا.

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ أى عيِّن لهم الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم يوم القيامة، بمعنى أن تعيين وقت حضور الرسل للشهادة من علامات الساعة. أو كأن معنى الآية: إذا بلغ الرسل الوقت أو الميقات المحدود الذى كانوا ينتظرونه للشهادة على أممهم. ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ جملة مستأنفة عن الرسل أى أنهم أجِّلوا ليوم عظيم هوله أشد الهول ﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾ أى يوم الجزاء الربانى الذى يفصل فيه بين الناس ويقضى بين المؤمن والكافر أو بين المؤمنين بالوحدة الإلهية والكافرين المعتقدين بكثرة الآلهة وتعددهم. ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ صيغة لتهويل هذا اليوم: يوم الفصل بين الإيمان والشرك والحق والباطل، أى وما أدراك وما أعلمك بهذا اليوم الهائل الذى لا تعرف حقيقته ولا كنهه ولا مدى هوله.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ قيل هذه الصيغة جواب لإذا المعددة لصيغ فناء العالم بعدها يعنى إذا طمست النجوم وفرجت السماء ونسفت الجبال حلَّ الويل للمُكذبين، والويل: العذاب والهلاك، وهو تأكيد لجواب القسم، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾. والمكذبون إما مكذِّبو الرسل عامة وإما مكذِّبو الرسول عليه السلام الموجه إليهم القسم وما تلاه من وصف فناء الدنيا. وقد

يُظن أن صيغة ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ -وقد ذكرت فى السورة عشر مرات- أنها مكررة، وليست مكررة، إذ تأتى فى كل مرة مع معنى جديد، فقد جاءت هنا لتهديد المكذبين للبعث وستُذكر عقب ذلك للمكذبين بعذاب الدنيا والمكذبين بإعادة خلق الناس فى الآخرة والمكذبين لعذاب الآخرة والمكذبين لثواب المتقين. وأعيدت مع إمهال الله لهم فى الدنيا، ومع دعوتهم الى الإسلام وإنكارهم له. فكل ويل خاص بما سبقه من صور إنكارهم للبعث وما تلاه من صور وتكذيبهم وجحودهم.

وآيات السورة جميعها موجهة إلى المشركين منكرى البعث، وبذلك تعد متممة لجواب القسم، والله - تقدس اسمه - يقرر للمشركين الجاحدين للبعث استئصاله لمكذبى الرسل قائلاً: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أى ألم نقض قضاء مبرما على من كذبوا الرسل الأقدمين مثل قوم نوح وقوم لوط وقوم عاد ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾ من أمثال ثمود وقوم شعيب الذين سلكوا مسلك الأولين فى تكذيب الرسل وتكذيب البعث. ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل هذا الإهلاك والاستئصال ﴿ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، أى تلك سنة الله فى عقاب المجرمين المكذبين للرسل ولحديثهم عن البعث واليوم الآخر.

ويذكر الله عقب ذلك النشأة الأولى للإنسان وقدرته على إيجاده بأعضائه وجوارحه قائلاً: ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ على هذا الإيجاد ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ على هذا الخلق العجيب بأطواره منذ حَمْله فى الرحم

إلى أن صار طفلاً. والله يستدل بذلك على أن الذى خلق الإنسان فى بدء حياته الأولى قادر على إعادة خلقه وبعثه يوم القيامة.

ويمتنُّ الله على الناس بخلقه الأرض معاشا لهم ولأنعامهم ومتاعا، وكما تضم أحياءهم على ظهرها تضم أمواتهم فى بطنها. ثم يذكر الله عذاب المكذب للبعث من النار الحامية، ويقول: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى ﴾ أى تقذف ﴿ بِشَرَرٍ ﴾ جمع شرارة، وهى القطعة المشتعلة فيها هذه النار فى الهواء ﴿ كَٱلْقَصْرِ ﴾ أى كل شرارة فيها ﴿ كَٱلْقَصْرِ ﴾ فى ارتفاعه وعظمه، أو كأنه أى الشرر ﴿ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ وجمالات جمع لجمالة بكسر الجيم وهى اسم جمع لطائفة من الجمال، ويمكن أن تكون جمعا لجمل مثل جمع حجر على حجارة. و﴿ صُفْرٌ ﴾ جمع أصفر أى أن كل شرارة كأنها جمل أصفر. وهذان التشبيهان للنار لبيان شدة قوتها وتخويف المكذبين منها، والتشبيه الأول بالقصر لبيان عظم النار، والتشبيه الثانى بالجمال الصفر لبيان لون الشرر وكثرته وحركته.

ويقول الله – عزَّ اسمه – للمشركين المنكرين للبعث: ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ أى حيلة تدفعون بها العذاب عنكم ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ أى احتالوا لأنفسكم وتخلصوا من عذابى إن استطعتم. وهو تقريع لهم وتعجيز. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أى إذا قيل لهم اخشعوا وادخلوا فى الإسلام وأطيعوا الله ورسوله وأدوا

فروض دينه وتعاليمه لا يقبلون ذلك ويصرون على شركهم وجحودهم بتوحيد الله والإيمان برسوله. ويختم الله السورة بقوله - جلّ جلاله - ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى بعد القرآن المعجز بيانه المؤسس على أدلة قاطعة وبراهين دامغة ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. والاستفهام فى الآية للتعجب الإنكارى أو الإنكار التعجبى من حال هؤلاء المشركين المنكرين للحياة الآخرة، أى أن هؤلاء المشركين إذا لم يصدّقوا بالقرآن العظيم وحججه الساطعة فى الإيمان بالبعث وما يرتبط به من الحساب مع الإيمان بوحدانية الله وبملائكته ورسله وكتبه فبأى حديث غيره يصدّقون ويؤمنون.

جـ - ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ ﴾

سورة النازعات ٦ -١٤.

أقسم الله فى افتتاح هذه السورة بطوائف شريفة من الملائكة، بدأها بالطائفة النازعة للأرواح وتلاها بالناشطة المسرعة فى تنفيذ أوامر الله والسابحة فى الأجواء المسرعة بإيصالها، والسابقة المبالغة

---

(١) سورة المرسلات: الآية ٥٠ وما قبلها.

فى سرعتها فالمدبرات لأوامر الله وتنفيذها. وجميعها تصور قدرة الله العظمى.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ بدء جواب القسم، والله - تقدس اسمه - فى هذه الآية وما يليها يقسم على وقوع البعث الذى ينكره المشركون. مهوِّلاً له بما يحدث فيه، وأول ما يحدث فيه الرَّجْف وهو الزلزال الذى تضطرب له الأرض، فترجف أى تتزلزل، الراجفة: الزلزلة الأولى.

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ أى الزلزلة الثانية، وهما النفختان المذكورتان فى قوله تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[1]

أى فإذا هم يبعثون وينظرون أهوال ذلك ليوم.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أى قلقة مضطربة أشد الاضطراب من الخوف الشديد والوجل، وهم الكفار المشركون بالله، أما أهل الإيمان فمطمئنون لا يخافون ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى ذليلة من شدة الخوف ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أى يقول الكفار ﴿ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ ﴾ أى لراجعون ﴿ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ أى إلى الحياة من قولهم رجع فلان

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٨.

في حافرته أى فى طريقه الذى جاء فيه وكأنه حَفَره فى مشيه ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾ : بقية كلام المشركين، والاستفهام فيها مثل سابقتها للإنكار التعجبى أى أنحيا ونُبعث بعد أن كنا أبعد شىء عن البعث والحياة أى إذ كنا عظاما نخرة بالية.

﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ عبَّر الله هنا عن موقف المشركين بالفعل الماضى بينما عبَّر عن موقفهم يوم البعث بالفعل المضارع ﴿تَرْجُفُ تَتْبَعُهَا ﴾ مما يدل على أنهم لم يقولوا ما ولى الفعل الماضى يوم البعث وإنما قالوه فى الدنيا على سبيل الاستهزاء بما يقال عن البعث وعن يوم القيامة زاعمين أنها ﴿ كَرَّةٌ ﴾ أى رجعة ﴿ خَاسِرَةٌ ﴾ ورد الله عليهم بقوله:

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ الزجرة من زجر البعير إذا صاح عليه غاضبًا، والله يردُّ على الكفار استهزاءهم بالبعث، وعبَّر الله بالزجرة عن أمره التكوينى لأجساد الناس فى قبورهم، وقال إنها صيحة كما فى قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ (ق: ٤٢) أى البعث، وسمَّاها النفخ فى الصُّور، وهى النفخة الثانية وهى الرادفة التى ذُكرت فى الآيات السالفة ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ أى بأرض الموقف، وهى مستوية بيضاء. ويخلق الله الأجساد وتحل فيها الأرواح التى كانت لهم فى الدنيا، ويحضرون فى موقف

الحشر للحساب والجزاء الإلهي.

ومضت السورة تقدم دليلاً قاطعاً وبرهانا ساطعاً على إمكان البعث، إذ يقول – جل شأنه – لأهل مكة والكفار المنكرين له:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾[1].

والله يصور في الآيات قدرته العظيمة في إعادة الناس يوم البعث، ببيان قدرته على خلق ماهو أصعب وأشد وهو خلق السماء التي تبصرونها، إذ يقول في سورة غافر: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[2] فقد بنى الله السماء بناءها العظيم جاعلاً ليلها ظلامًا ونهارها ضياء. ومثل خلق السماء في القدرة الإلهية العظيمة خلق الأرض التي ﴿دَحَىٰهَآ﴾ وبسطها لسكن الناس والأنعام ومعاشهم، و﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ إذ فجَّر فيها عيونا وأنهارا أعدَّت لما قام فيها من المراعي والنباتات والثمار. وخلق الله في الأرض الجبال الضخمة أوتادا أرساها أي مثبتا صخورها وأعراق أشجارها. وكل ذلك تتضح فيه قدرة إلهية أعظم من القدرة في إعادة الله لخلق الإنسان وبعثه للحساب والثواب والعقاب.

---

(١) سورة النازعات: الآيات ٢٧ – ٣٢.

(٢) غافر: ٥٧.

(٢)

الحســـــاب

الحساب عرض أعمال الناس – عقب البعـث – علـى ربـهم، إذ يعرضون – عليه – بأعمالهم ولا تخفى عليه منها خافية، حتـى لـو كانت مقدار ذرة، وقد وضعت لها الموازيـن العادلـة، كمـا جـاء فـى سورتى الأعـراف والأنبيـاء وهـى عدالـة كـبرى، عدالـة رب الكـون والخلق.

ويتكرر فى القرآن الكريم ذكر أعمال الطائعين الحسنة مـن عبـادة الله والزكاة وغيرهما وذكر أعمال العاصين المذنبين السـيئة، ويخـرج الله لكل شخص مطيع أو عاص كتـاب جزائـه علـى أعمالـه والفـائز السعيد ﴿ مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾[1] فتعظم سـعادته ومسـرته، ويقول على رءوس الأشهاد من فرط سعادته ومسـرته كمـا فـى سـورة الحاقـة: ١٩ – ٢٧ ﴿هَآؤُمُ﴾ خـذوا ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴾ ومـا فيـه مــن البشــرى الهنيئـــة باســتحقاق نعيــم الجنـــة ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ مـن العـاصن المذنبـين فيظلـــم

(١) سورة الحاقة: الآية ١٩.

الوجود من حوله، ويقول لمن حوله في المحشر متحسّراً أسوء تحسر ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾ لما عرف من سوء مصيره وعاقبته، ويقول نادما أشد الندم: ﴿ يَٰلَيْتَهَا ﴾ أى موتته ﴿ كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ أى ياليته لم يُبْعَثْ وظل ترابا فى قبره فلم ير مصيره الأليم وما سيعذّب به من النار الحامية.

أ - ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾: سورة الذاريات-٥-وما بعدها.

وأقف قليلاً عند سورة من سور البعث والحساب، وهى سورة (الذاريات) وقد أقسم الله فى فاتحتها بالرياح الدالة على قدرته العظيمة بمنافعها وتصاريفها الكثيرة. ويقول الله فى جواب القسم بها: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أى من البعث والحساب والثواب والعذاب ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ أى منتهى الصدق ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ ﴾ أى الجزاء عند أكثر المفسرين، وفسّره ابن كثير بأنه الحساب ﴿ لَوَٰقِعٌ ﴾ يوم القيامة لا محالة. ويضيف الله إلى القسم بالرياح القسم بالسماء قائلاً: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ أى طرائق النجوم ومجرّاتها ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها الكفار ﴿ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾. ومرَّ فى أول الفصل الثانى الحديث عن هذا القسم وجوابه وما يفيد الجواب من اختلاف الكفار فى القرآن أهو شعر أم سحر أم كهانة أم أساطير الأولين، وأيضاً اختلافهم فى الرسول أهو شاعر أم ساحر أم كاهن أم مجنون. ونقض القرآن أقوالهم قائلاً: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ أى لُعِنَ الذين يقولون هذه

الأقوال كذبا وبهتانا دون حجة أو دليل ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾، أى فى شغل عن تدبر دعوة الرسول ﴿ سَاهُونَ ﴾ أى غافلون. ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ أى متهكمين ساخرين من الرسول وكثرة أحاديثه وأحاديث القرآن عنه قائلين متى يقع هذا اليوم: يوم الحساب والجزاء. وأجابهم الله قائلاً: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أى يوم يعذَّبون بالنار، ويقول لهم خزنة النار: ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أى عذاب النار ﴿ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ هازئين فى حياتكم بالدنيا قائلين ساخرين: متى هذا الوعد.

ويذكر الله ما نعم به فى الحياة الآخرة من استجابوا للرسول من المؤمنين واعتنقوا الدين الحنيف وعبدوا الله حق عبادته، وأدوا ما دعاهم إليه من الصلاة والزكاة والصدقة مواساة للفقراء والمساكين، يقول عزَّ شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أى للكفر وعصيان الله ورسوله ﴿ فِى جَنَّـٰتٍ ﴾ أى كثيرة متعددة ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أى أنها جارية ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى ما أعطاهم من المطاعم والفواكه والشراب والرياحين والحور العين، مما تردد ذكره فى سورتى الصافات والواقعة وغيرهما، وعلَّل الله عطاءه العظيم لأهل الجنة قائلا: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ فى حياتهم الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أى لأعمالهم الصالحة ابتغاء مرضاة الله وعبادته عبادة مخلصة صادقة ليلا ونهارا. ويصف الله عملهم الصالح فى عبادته

قائلاً: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أى ينامون إذ كانوا يشغلون أكثر ليلهم بالصلاة وذكر الله كما قال الله لرسوله فى أول دعوته بسورة المزمل: ٢، ٣ ﴿ قُمِ ﴾ أى صل ﴿ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾.

ويقول الله: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ ﴾ أى فى وقتها بثلث الليل الأخير ﴿ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الله منيبين إليه وداعين. ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ وافر من الزكاة والصدقة ﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ أى للفقير الذى يسأل الناس و﴿ ٱلْمَحْرُومِ ﴾ أى المتعفف الذى يُحْرَم من الصدقة لتعففه، وهم الذين قال الله فيهم فى سورة البقرة - ١٧٣ :

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ إذ لا يسألون ملحِّين.

ب - ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ﴾ : سورة التغابن الآية٧

فى سورة التغابن آية موجزة بها قسمٌ على وقوع البعث والحساب وهى قوله -تقدَّس اسمه- :

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ ﴾.

الزعم توهُّم القائل صدق ما يقول، وهو غير صحيح، من ذلك أن

كفار قريش زعموا أنهم لن يحيوا مرة ثانية ولـن يبعثـوا أو يخرجـوا أحياء من قبورهم، وأمر الله الرسول أن يرد عليهم ويبطل مـا زعمـوه قائلاً: ﴿قُـلْ بَلَـى﴾ وهى لإيجاب النفى لما قبلها أى قـل يـا محمد بلى تبعثون ﴿وَرَبِّـى لَتُبْعَثُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ . أى إنكـم لتنبـؤنَّ بأعمـالكم فـى دنيـاكم ولتحاسـبُنَّ، يحاسبكم عليها الله حسابا عادلا دقيقا. إن كل ذلك على الله يسير.

(٣)

الجـــزاء

ذكـر الله – تقـدَّس اسمـه – فـى القرآن الكريم مراراً وتكراراً وَعْدَ المؤمـنين المطيعين بالجنة ونعيمها ووعيد الكافرين العاصين بالجحيم وعذابهـا، فكان طبيعيا عليه أن يبعثهم يوم القيامة لحسابهم وعرض أعمالهم وجزائهم العادل عليها. ومرَّ بنا فى سورة الذاريات قسم الله عـلى صـدق وعـده بالبعـث والحسـاب والجـزاء ومـا ينطوى فيه من الثواب والعقاب.

أ – ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ : سورة الطور ٧ — ١٢.

تـلى الذاريـات فى المصحف الطور، وهو الجبل المبارك الذى كلم الله علـيه رسـوله موسـى، وأقسم به فى فاتحتها وبالتوراة والكعبة، ثـم فصـل الحديـث فى جواب القسم عن الجزاء وقسميه من العذاب والثواب قائلاً:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

والعذاب فى جواب القسم عذاب الكفار فى الآخرة ﴿ لَوَٰقِعٌ ﴾ أى نازل بهم ولا مفر لهم منه إنه ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ يدفعه عنهم، قال جبير بن مطعم: قدمت المدينة على رسول الله ﷺ فى أسارى بدر، فوجدته فى صلاة الفجر يقرأ سورة الطور وصوته يخرج من المسجد، فلما بلغ قول الله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبى حين سمعته، وكان ذلك أول ما دخل الإسلام فى قلبى فأسلمت خوفاً من أن ينزل بى العذاب قبل أن أقوم من مقامى. ومثل هذا التأثير وقع لعُمَرْ، وكان يقع للصحابة فى سماعهم الرسول ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم. وصوَّرت ذلك فى كتابى «محمد خاتم المرسلين» وقلت إنه وجه من وجوه إعجاز القرآن لم يتنبه إليه الأسلاف. ويذكر الله – تقدس اسمه – فى سورة الطور يوم نزول هذا العذاب بالكفار، وهو يوم ﴿ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ أى تتحرك مضطربة لاضطراب كواكبها واختلال نظامها عند انتهاء الحياة الدنيا ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أى تزول عن وجه الأرض وتصير هباءً مثل العِهْن أو الصوف المنفوش كما جاء فى سورة القارعة: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى عذاب ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى الكفار الذين كذَّبوا رسول الله و ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ ﴾ أى الذين كانوا فى الدنيا يخوضون فى الأباطيل والأكاذيب ضد محمد ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ أى يستهزئون ويسخرون. ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ

﴿ ١٤ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿ ١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

يذكر الله عذابهم فى الآخرة ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أى يدفعون ويساقون ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أى دفعا وسوقا عنيفا، ويقول لهم زبانيتها موبخين لهم ﴿هَـٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فى دنياكم حين كنتم تسمعون من الرسول الإنذار بها وتقولون: إن كل ما ينطق به سحر، ويوبخهم الله قائلاً: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ ﴾ العذاب بالنار الذى ترونه ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ الآن، وهو توبيخ شديد. ﴿اصْلَوْهَا﴾ أى ادخلوها وقاسوا عذابها الشديد ﴿ فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى لاخلاص لكم منها، وسيان صبركم وعدمه ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاء عادلاً منتهى العدل، دون أى ظلم. ويذكر الله جزاء المصدقين للرسول المقابلين للمكذبين مما يدخل فى جواب القسم بالسورة إذ يقول: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿ ١٧ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿ ١٨ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ الطور: ١٧-٢٠.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى إن المؤمنين المتقين للكفر والآثام ﴿ فِى

جَنَّٰتٍ﴾ بالآخرة ﴿نَعِيمٍ﴾ أى فى نعمة وطيب عيش ﴿فَٰكِهِينَ﴾ مسرورين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وأعطاهم بما أسعدهم سعادة عظيمة ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أى حفظهم من نار جهنم وعذابها الأليم، ويدعوهم الله للطعام والشراب هانئين بما عملوا من الأعمال الصالحة فى الدنيا. وإنهم ليجلسون فى الجنة - كأهل الترف فى الدنيا ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ﴾ أى بحسناوات يحار الطرف فى جمالهن ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء أى واسعات الأعين جميلاتها. ويلحق الله بهم ذريتهم فى هذا النعيم قائلاً:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢١- ٢٨].

والله يمتنّ على المؤمنين الصادقين بأنه يلحق بهم وبنعيمهم بالآخرة ذريتهم المؤمنة، ولاينقص الآباء من ثواب عملهم شيئا إذ ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى أن عمله مرهون به مقرون. ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ . ولحم مما تشتهيه نفوسهم، ويتداولون

فيها كئوس خمر مخالفة لخمر الدنيا، إذ ليس معها لغو من الكلام ولا ما يأثمون فيه، إذ هى خمر الجنة الطيبة ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أى يدور عليهم بالكئوس ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ يخدمونهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ لمنظرهم البديع ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ فى صفاته وحسنه. ويتحادثون ويذكرون ما أنعم الله به عليهم مع وقايته لهم من سَموم النار وحرارتها وعذابها استجابة لعملهم الصالح فى الدنيا وتضرعهم إليه، فاستجاب تضرعهم ودعاءهم.

ب – فى سورة المدثر

ومن السور التى ذكر الله فيها قَسَمًا على صدق الجزاء وقسيميه من العذاب والثواب سورة المدثر ثالثة السور القرآنية التى أُنزلت على الرسول ﷺ، وبها تهديد للطاعن فى القرآن الكريم زاعما أنه سحر وليس قولاً إلهيا، بل هو من قول البشر، وتوعده الله بأنه سيُصليه فى الآخرة نار سقر أى جهنم المهلكة. وأقسم بالقمر وسَحر الليل وضياء الشروق ﴿إِنَّهَا﴾ أى النار ﴿لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾[1] أى الدواهى الكبيرة التى جعلها الله ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ أى تهديدا لهم ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ بالإيمان ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بالشرك والعصيان.

ويقول الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من المنذرين العاصين ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣٥ وما قبلها.

أى بكسبها من خير أو شر ومن أعمال حسنة أو سيئة ﴿ رَهِينَةٌ ﴾ عند الله أى محبوسة ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فقد فكوا رهنهم عند الله بما كسبوا من أعمال حسنة طيبة، فهم ﴿ فِى جَنَّٰتٍ ﴾ ناعمون ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أى يسأل بعضهم بعضاً ﴿ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ المشركين ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ أى أدخلكم ﴿ فِى سَقَرَ ﴾؟ وأجابوهم بأن أربعة ذنوب دفعت بهم إلى النار قائلين: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ أى أنهم لم يكونوا من المتقربين إلى الله بالصلاة ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ أى أنهم لم يكونوا من المشفقين على المساكين الجائعين، إذ لم يكونوا يقدمون لهم شيئا من الطعام ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ أى كنا نشاركهم فى عصيان الله والشرك به ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أى بيوم القيامة والبعث والحساب ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ أى الموت ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ من الأنبياء والملائكة إذا قُدِّرت لهم، ولن تقدَّر، ولن يشفع لهم أحد.

ويقول الله: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ ﴾ أى عن القرآن ومواعظه ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾. وكانوا إذا سمعوا الرسول يتلوه فروا عنه ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ ﴾ وحشية ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ أى هاربة ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أى من أسد وحشى مرعب ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ أى صحفا وقراطيس مفتوحة للقراءة ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم ﴿ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ وما فيها من عذاب النار الأليم. ﴿ كَلَّآ

﴿إِنَّهُۥ﴾ أى القــرآن العظيــم ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ أى عظة بالغة، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ الهداية والاتعاظ به ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ وتــلاه مــتعظا معتــبرا. وتشير الآية إلى أن للإنسان مشيئة و إرادة فـى أعمالـه وإيمانه، وهو ما يسميه الأشعرى كسـبا ويسـميه المعتزلـة قـدرة. ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾ القرآن ومواعظه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أى إلا بمشــــيئته الكـــبرى، ولا يـنفى ذلـك أن تكـون للإنسـان مشيئة صغرى هى مناط التكليف وطاعة الله وعصيانه. ويختم الله سورة المدثر بقوله: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ فالله حقيق بأن يتَّقى عقابه ويطلب غفرانه.